على هامش النقد :

مليم الأكبر

بحث وقصة ... عادل كامل
للأستاذ سيد قطب

أيها القارئ !

هذا كتاب يجب أن تقرأه . لا لأنك ستوافق على كل ما جاء فيه ؛ ولا لأنك ستنبذ كل ما جاء فيه . ولكن لأنه سيثير انفعالك بالرضى مرة وبالسخط مرة ؛ ولأنه سيدعوك إلى التأمل والتفكير فى كثير من القضايا المسلم بها فى الأدب والفن والأخلاق والنظم الاجتماعية والاقتصادية ، لتنبذها وتحطمها ، أو لتذود عنها وتتمسك بها ...

وأيما كتاب استطاع أن يستجيش انفعالاتك على هذا النحو ، فهو كتاب قد وهبت له الحياة ، ولو قذفت به فى النهاية إلى الجحيم !

وقد كان الكتاب فى أول أمره « قصة » تقدم بها الأستاذ « عادل كامل » إلى « المجمع اللغوى » لتنال جائزة معينة ، فرأت لجنة المجمع الأدبية لاعتبارات خاصة ألا تمنحها الجائزة ... ومن هنا نشأ « البحث » الذى يرد به المؤلف على هذه الاعتبارات ، فيتناول فيه نواحى فى اللغة والأدب والفن والأخلاق ، لا تقل فى قيمتها ، ولا فيما تثيره من انفعالات السخط والرضى عن القصة ذاتها

ونحن نؤثر أن نسير فى مناقشة هذين الكتابين ، حسب وجودهما فى عالم الحياة فهذا هو الترتيب الطبيعى للأشياء

* * *

قصة « مليم الأكبر » هى قصة الصراع بين الطبقات ، مصبوبة فى قالب فنى . فهى على هذا الوضع من أدب « الوعى الاجتماعى » الذى يدعو إليه جمهور من المفكرين فى جميع أنحاء العالم ، وتدعو إليه الاشتراكية والشيوعية بشكل خاص !

ولهذا النوع من الأدب قيمته — وبخاصة فى هذه الفترة من حياة العالم — ولكن الذى يثير الانتقاد هو غلو الداعين إليه ومبالغتهم فى فرضه على جميع الفنانين ؛ بوصفه ضريبة إنسانية على كل فنان ... هذا الغلو غير مفهوم من الوجهة الفنية — بل من الوجهة الإنسانية — فالإنسانية ليست هى هذا الجيل وليست هى بضعة الأجيال المقبلة ... إنما هى الأجيال الماضية منذ الأزل ، والأجيال المقبلة طول الأبد . وهذه وتلك لا تتكمش فى هذا الحيز الضيق ، حيز جيل من الأجيال . ثم إن هنالك مطالب الإنسانية التى لا تنحصر فى ضرورات الطعام والشراب ؛ ولا فى حيز الضرورات على الإطلاق ؛ إنما تتطلع إلى آفاق أرفع وأرحب ؛ وتهفو حتى فى أشد حالات الضرورة إلى ألوان من الفن المطلق الرفيع

وإذا صح أن أدب الوعى الاجتماعى ضريبة على كل فنان ، فلتكن نسبته هى نسبة الضرائب إلى مجموعة الإيراد ! بل ليكن فرض كفاية على الفريق المهيأ له من بين جموع الفنانين ، فالتجنيد قد يصلح فى كل بيئة إلا بيئة الفنانين !

* * *

ثم أبادر إلى تصحيح وهم ربما يكون قد سبق إلى ذهن القارئ حين وصفت هذه القصة بأنها من « أدب الوعى الاجتماعى » ... إن انحصار القصة فى هذا الحيز لم يسلبها السمة الفنية الأصيلة . وإن المؤلف ليبدو فى قصته هذه صاحب موهبة فنية لا سبيل إلى الشك فيها . موهبة العرض والتنسيق ورسم الملامح والشخصيات ، وإدارة الحوادث والمفاجآت ... فهى من هذه الناحية تستوفى صفات القصة الجيدة على وجه العموم .

ثم هى تحمل طابع مؤلفها بوضوح فى نواحى النقص فيها ونواحى الكمال . فالمؤلف صاحب طريقة مطبوعة وأسلوب مرسوم . وهذا يقرر وجوده الفنى فى عالم القصة بلا جدال

يعمل المؤلف فى جو متماوج متداخل ، جو « الضباب والرماد[1] » فتمر الحوادث والشخصيات والملامح والانفعالات مرارا متأرجحا متماوجا . وتبدو للعين كما تبدو المناظر وراء الضباب ... ليست هناك مواقف حاسمة ، ولا انفعالات صارمة ، ولا حركات عنيفة ، ولا ضجات توقظ الإحساس . وحينما تنتهى القصة تحس أنك فى حاجة لأن تقرأها من جديد لتثبت من ملامحها التى مرت من قبل مر السحاب ! وربما خطر لك أن تسأل ، ماذا يريد ؟ ثم تتوارى الشخصيات والحوادث لتجد فى نفسك انفعالات غامضة متماوجة تثير القلق والتأرجح والاضطراب

(١) عنوان أقصوصة للمؤلف !

... يخيل إليّ أن هذا هو كل غرض المؤلف من عمله الفني ـ إن كان له غرض ـ : أن يثير القلق الغامض والتأرجح المضطرب ، وأن يغمز اليقين الهادئ ويطلق في النفس الإنسانية عنصر الاضطراب ويسلبها الثقة والاطمئنان لأي شيء في الحياة ! وما الحوادث والشخصيات إلا أدوات فقط للوصول عن طريقها إلى هذا الهدف الأخير

إنه ـ من وجهة نظر المذاهب الاجتماعية التي يدعو إليها ـ يعد ناجحاً إذا هو قد هز في النفس الإنسانية عنصر الاستقرار ! فهو إذن من خيرة من يصلحون لهذه الدعوة ، لا بما يلقيه هنا وهناك من توجيهات ظاهرة ، ولا بما يغمز به النظام الاجتماعي والاقتصادي من غمزات موحية . ولكن — قبل ذلك كله — بما يطلقه في النفس الإنسانية من التأرجح المضطرب الذي لا يقر على قرار !

* * *

« قال مليم

— بلا جدال ...

ثم حمل عدته وانطلق في الطريق دون التفات ، وهو يضرب الأرض في عزم وإصرار كأنه مقدم على فتح عكاء . أما رفيقه فقد وقف يشيعه بابتسامة ساخرة ؛ فلما أن صار منه على مرمى حجر ، صاح في إثره قائلاً :

— سنرى ...

وقهقه ضاحكاً ثم انكفأ إلى طريق غير الطريق »

* * *

« بلغ النقاش أقصاه بين خالد وأبيه كعادتهما كلما دار بينهما حديث ـ أي حديث ـ . ومهما يكن الموضوع تافهاً ، فإنه يتطور على الدوام إلى اصطدام عنيف بين الأب وابنه . أما الأب فداهية مراوغ ، يلذ له شعور القوة الذي يدفع بالقط إلى العبث بفريسته قبل التهامها ، فهو يطيل من النقاش ويدير دفته إلى وجوه من الرأي يعرف أن ابنه يضيق بها ذرعاً ، ثم يرقب في سعادة أثيمة ما يختلج في صدره من ثورة ، وما يلوح على وجهه من اضطراب وضيق

« وقد كان . فما لبث أن اربد محيّا الفتى ، فانفجر يرد على تساؤل أبيه قائلاً :

— بلا جدال ...

ثم انثنى إلى حجرة المكتب ، وأغلق من خلفه الباب ، ولو انتظر لرأى بسمة السعادة الأثيمة ترتسم على شفتي أحمد باشا خورشيد ، ولسمعه يتمتم قائلاً :

— سنرى »

* * *

هكذا يبدأ المؤلف قصته فيرسم ـ منذ الصفحة الأولى ـ الخطوط الأولى في ملامح هذه الشخصيات الثلاثة التي هي محور القصة جميعاً : مليم ، خالد ، أحمد باشا خورشيد ؛ ويرسم لهذه الشخصيات الثلاثة طريقها كذلك ـ لا طابعها وحده ـ فمليم « ينطلق في طريقه دون التفات وهو يضرب الأرض في عزم وإصرار » تلك طريقته أيضاً في جميع أدوار القصة ! وخالد « يريد محياه ثم ينفجر وهو يرد على أبيه ، ثم ينثني إلى حجرة المكتب ويغلق من خلفه الباب » تلك أيضاً طريقته في مستقبل الحياة : انفعال وانفجار ثم انزواء واعتزال ، واضطراب دائم بين هاتين الخطتين حتى ينتهي الصراع » . وخورشيد باشا « داهية مراوغ يلذ له شعور القوة الذي يدفع بالقط إلى العبث بفريسته قبل التهامها .. وهو يرقب في سعادة أثيمة ما يختلج في صدر ولده من ثورة وما يلوح على وجهه من اضطراب وضيق » تلك طبيعته وهذه طريقته في القصة وفي الحياة !

هو استهلال بارع ـ كما ترى ـ وهي ريشة ملهمة تضع الخطوط الأولى فتشير إلى الخطوط الأخيرة ... وقد يبدو أن القصة لم تسر في جميع مراحلها بهذه القوة وبهذا الوضوح ... فيجب أن نلتفت إلى أن القوة والوضوح ليسا من أهداف المؤلف ... وأن التموج والاضطراب هما قوام طبيعته وقوام طريقته . وقوام أهدافه المقصودة أو غير المقصودة ولكنها هي التي تتحقق على كل حال !

* * *

جعل المؤلف « مليم » هو بطل القصة وبه سماها . أما نحن فنرى أن « خالد » هو الشخصية الأولى فيها . فخالد شاب نشأ في طبقة الأثرياء ـ ابن خورشيد باشا ـ ولكنه سافر إلى انجلترا وطاف بالبلاد الأوربية حيث كانت المذاهب الاجتماعية الحديثة ، تصطرع مع الأوضاع التقليدية القديمة . ثم عاد فوجد نفسه غريباً بين أهله ، غريباً كذلك في مجتمعه . إن رأسه محشو بالنظريات الحديثة وإنه لمتحمس لها كل الحماسة . ولكنه لم يكن

ذا طبيعة عملية ، تنفذ فى عالم الواقع ما يجيش فى نفسه من نزعات . كان خليطاً عجيباً من رجل الواقع ورجل الخيال . كانت تصطرع فى نفسه ورائات مختلفة وتيارات متعارضة . كان صوفياً وشهوانياً . كانت نفسه حلبة صراع بين شتى الاتجاهات . « ولو أتيح لأحد أن يكشف عن رأسه لوجد فيها حجرتين إحداهما يتربع فيها القرن العشرون بآلاته ومعادلاته . والثانية يمرح فيها القرن الثامن عشر وسط غابة يخترقها جدول » كما يقول مؤلفه

تصطدم هذه الشخصية المخلخلة المضطربة الثائرة الحائرة بشخصية خورشيد باشا القاسية الجانية الماكرة اللئيمة . ذلك الرجل الذى يجد طعم اللذة الأثيمة وهو يحاور ابنه الطيب القليل الحيلة ويداوره حتى يشعره بالألم والضيق . والذى يتهمه المؤلف بأنه قاتل أبيه ليرثه . وبأنه يشعر بسعادة أثيمة وهو يؤذى فلاحيه ويطلق عليهم كلبه ليعقرهم ... الخ ، إنه نموذج لتلك الطبقة الأنانية الجشعة « التى تسرق أموال الفقراء ! » والتى أفلح المؤلف فى أن تمقتها كل المقت وتزدريها كل الازدراء

يصطدم خالد بأبيه انتصاراً لمليم (صبى النجار) المتهم من الباشا بالسرقة جزاء أمانته ، وهنا نجد جميع القوى محتدة فى صف المال . وما إجراءات العدالة إلا مظاهر جوفاء كراسيم التضحية بالفريسة فى مجتمع متوحش . ويسلم مليم للسجن جزاء أمانته ! ! !

أما مليم فمهمته الحقيقية فى القصة أنه محورها الفنى .. لقد فهمنا أن المؤلف يريد أن يرمز به إلى « رجل الشارع » ذى الفضائل الفطرية والطبيعة المستقيمة والعزيمة العملية ... ولكننا فوجئنا وهو ينحرف به فى منتصف القصة فيكلفه القيام بعمل لا يقوم به « الرجل الشريف » ثم يجعله فى نهايتها أحد أغنياء الحرب المعروفين !

ترى أفلت الزمام من يد المؤلف ؟ أم هى طبيعته طبيعة العتاب والرماد ؟ ! هنا تستوى الغلطة والاصابة فى الدلالة على طبيعة المؤلف وطريقته !

* * *

وفى القصة غير هذه الشخصيات الرئيسية الثلاثة شخصيات أصيلة هى الأخرى . أطلق عليها اسم « جماعة القلمة » أولئك جماعة من الحالمين المنحلين . يصنعون كل شىء فى أحلامهم الممتزجة بدخان النرجيلة ! إنهم ينشئون مجتمعاً جديداً مطلقاً من جميع القيود والتقاليد ، ولكن « فى المنام » ! هذه الجماعة تمثل حيرة فريق من شباب الجيل فى مفرق الطريق !

وهنا يجتمع خالد ومليم ، فيقوم مليم بعمله الذى لا يقوم به « الرجل الشريف ! » يحتال على الرجال باسم « هانيا » الفتاة إحدى شخصيات جماعة القلمة !

ويقوم خالد بدور من أدواره كذلك . حتى إذا انتهت القصة وجدنا هذه الجماعة المنحلة الحالمة وقد تفرق شملها ولم تصنع شيئاً . ووجدنا « خالد » يعود إلى طبقته ومجتمعه وقد انحلت نفسه وفرغت طاقتها وسقط صريعاً فى حومة الصراع الذى دار فى داخل شخصيته أعواماً . ووجدنا « مليم » وقد أصبح من أغنياء الحرب ... ثم وجدنا الحوادث والشخصيات كلها تتوارى ليسأل كل منا نفسه : ماذا أراد ؟ وماذا كان يريد ؟ وقبل أن يسأل الجواب على سؤاله يجد نفسه تتأجج وتتماوج فى هذا الضباب الذى أطلقه المؤلف ، وكأنما يطلقه بغير تدبير ! ! !

* * *

فى أحلام « جماعة القلمة » ، وفى تصرفات خالد ومليم . وفى حوادث القصة نزوات وفلتات خلقية وجنسية ، أخشى أن تكون جميعها وحى مزاج منحرف شاذ !

مقياس الجماعة لصلاحية الفرد للجيل الجديد ، ألا يجد غضاضة فى معاشرة أخته معاشرة الأزواج ! ذلك هو الدليل الذى لا يخطىء على أنه طليق من جميع التقاليد !

أحد أفراد الجماعة ينظر إلى مليم بإعجاب ويقول : إنه « زوجنا » جميعاً !

خالد يتحسر — بعد وفاة أمه — على أنه لم يوقظها بقبلاته كل صباح كأنها « زوج » له !

مليم يعثر على لفافة فى بيت خورشيد باشا وهو يصلح النافذة ، فيعطيها لخالد . فيتوقع خالد أن تكون غرامية تخص والدته الحاجة . ويبتهج لهذا الخاطر ويستريح !

بنت عمة خالد أنثى تتهالك عليه فى أوضاع مخجلة عارمة البهيمية . لهذا ولأمثاله دلالته . ولعل هذه الدلالة كانت أهم الاعتبارات التى منعت لجنة المجمع من منح الجائزة للقصة . واللجنة محقة — لا من الوجهة الفنية — ولكن من وجهة أن مثل هذه الاتجاهات مما يجب أن يلقى به صاحبه رأساً إلى الجو الأدبى الطليق فيرى فيه رأيه بحرية . لا مما تحتمل اللجان الرسمية تبعة تقديمه إلى القراء .

أما الكلام فى المقدمة فموعدنا به قريب .

سيد قطب